نحو تحرير العقل الإنساني من

هيمنة الفكر الغربي

د. مصلح كناعنة

مدخل: للهيمنة طرفان: مهيمـن ومهيمـن عليه. ولا تتوفر الهيمنة إلا إذا اجتمع أمران: مقدرة المهيمن على فرض سيطرته على المهيمن عليه، وعدم تمكن المهيمن عليه من ردع تلك السيطرة بدايةً والتحرر منها فيما بعد. من هذا المنظور علينا أن ننظر إلى وضعية هيمنة الفكر الغربي على دراسات الإنسان والمجتمع في الوطن العربي. فلكي نعرف بأي اتجاه نـسير فـي بحثنا عن "مدخل عربي – إسلامي إلى دراسة الإنسان والمجتمع"، علينا أن ننطلق من تشخيص سليم لأسباب المشكلة التي استوجبت هذا البحث.

بالعودة إلى منابع الفكر الغربي المعاصر، سوف أحاول أن أثبت أن "الحداثة" هي منبـع الأزمة التي نعاني منها نحن وبقية العالم. ثم بالعودة إلى منابع الفكر العربي الإسلامي، سـوف أحاول أن أثبت أن عجز هذا الفكر عن مضاهاة الفكر الغربي يكمن في إغلاق أبواب الاجتهـاد وإطلاق العـنان لمنهج القياس. وفي النهاية سوف أطرح بعض الأفكـار المتعلقـة بمـستقبل العـقـل العربي الإسلامي والأهداف التي يجب أن يسعى إليها هذا العقل بعد تحرره من هيمنة الفكر الغربي.

الحداثة: الحداثة كتيار فكري، نشأت في أوروبا نتيجة للثورة الصناعية والثورة الفرنسية ونشوء الدولة القومية. وجوهر الحداثة هو "مشروع التنوير". و"التنوير" هو الإيمـان بالعقـل والعـلم ومقدرتهما على تمكين الإنسان من السيطرة على البيئة الطبيعية والاجتماعيـة التـي يعيش فيها. ولكن ليس كل عقل قادرا على السيطرة على الطبيعة والمجتمع واستغلالهما، وإنما العقل الوحيد القادر على ذلك هو العقل الغربي الذي يتمتـع بعقلانيـة مبنيـة علـى المنطـق الأريسطوطالي. وهكذا أدى الإيمان الحداثي بمقدرة العقل على التحكم بالطبيعة إلـى الإيمـان الحداثي بمقدرة الغرب على التحكم ببقية العالم... والإيمان بواجـب الإنـسان العقلانـي فـي السيطرة على الطبيعة من خلال العلم، أدى إلى الإيمان بواجب، وحق، الإنسان الغربـي فـي السيطرة على شعوب العالم من خلال "التحديث".

أزمة الحداثة: في منتصف القرن العشرين أصبح فشل مشروع الحداثة وعجزها عن تحقيق وعودها بالرخاء والمساواة والحرية واضحاً. وفشلت النظريات الكبرى التي أنتجتها الحداثة في بناء "المجتمع السليم" الذي يسوده التضامن العضوي ويوجهه الهدف الإنساني الأسمى، وتركت الفرد وحيدا عاريا في مواجهة ألغاز الحياة المعاصرة. ونتيجة لهذا الفشل برز إلى الوجود في الغرب تيار ما بعد الحداثة الذي يسعى إلى تقويض الأسس المعرفية للحداثة ومشروعها التنويري. وقد حولت ما بعد الحداثة العلم من تراكـُم للحقائق السليمة إلى مجموعة من "الألعاب اللغوية وألعاب القوة" التي لا علاقة لها بالحقيقة وإنما بالمعنى والتأثير. ومن هنا فإن ما بعد الحداثة هي أداة هدم وليست مشروع بناء، وهي لا تطرح أي بديل للحداثة سوى حق الجميع في طرح البدائل التي يريدونها.

نحن والحداثة: إذا كانت الحداثة قد فشلت واعترف الغرب نفسه بفشلها، فلماذا ما زلنا نحن العرب نعتبرها شرطاً ومقياساً للتقدم والنجاح؟ ولماذا نعجز حتى الآن عن أن نحرر أنفسنا من هيمنة العقل الغربي الحداثي وهو على فراش الموت؟

علة العقل العربي: منذ أن اقفل الخليفة المتوكل باب الاجتهاد واعتمد الأئمة الأربعـة مصدراً للإسلام الصحيح، أصبح العقل العربي الإسلامي يدور في نطاق آليات فكريـة تعتمـد على القياس، وبذلك جـَمد العقل العربي الإسلامي وانفصل عن الواقع المتحرك والمتغير. وفي غزوة نابليون لمصر عام 1798 استيقظ العرب ليكتشفوا فجأة أن الزمان من حولهم تحرك بينما ظل واقفا في ديارهم. ومنذ ذلك الوقت لا يزال الشغل الشاغل للعقل العربـي الإسـلامي هـو الإجابة على السؤال: لماذا تقدم الغرب وتخلف المسلمون؟ أما الإجابات على هذا السؤال فكلهـا قياسية "تقيس الشاهد على الغائب" إما زمنيا (حل العودة إلى الماضي) أو مكانيا (حل الارتمـاء في أحضان الغرب الحداثي). ولهذا فإن العقل العربي الإسلامي لا يزال في مجمله يفتقد إلـى الإبداع والفاعلية من حيث وضع أسس مستقلة لدراسة الإنسان والمجتمع.

من هنا، إلى أين؟ ليس من السهل أن نحرر العقل العربي الإسلامي مما اعتاد عليـه لأكثر من ألف عام، فالقياس كالمخدر الذي يدمن عليه العقل الكسول. ولكن إذا كنا حقيقةً نريـد أن نحرر أنفسنا من هيمنة العقل الغربي، فلا بد لنا من أن نتعامل بوعي وجدية مـع مـصدر عجزنا لكي نتمكن من التصدي لهيمنة الغرب علينا ومن ثم ننطلق نحو تخليص عقول أجيالنـا المقبلة من كل ما من شأنه أن يكرس فيها الفكر الاستعلائي الضيق للحداثة الغربية، وذلك بنزع مخلفات الحداثة من أنظمة وبرامج التربية والتعليم التي نصوغ من خلالهـا عقـول الأجيـال

المقبلة. وحيث أن العلم والمعرفة يتميزان بالشمولية الإنسانية وليس بالخصوصية الثقافية، فإن التحدي الأكبر الذي نواجهه نحن العرب في هذا العصر هو تمكين العقل العربي الإسلامي من المساهمة الفعلية في فك أسر العلم والمعرفة الإنسانية من قبضة العقل الغربي الحداثي، ومن ثم المساهمة الفعلية في مشروع "أنسنة" العلم و"علمنة" الإنسانية، لكي يصبح العلم علماً والمعرفـة معرفة بالمعنى الذي يتلاءم مع مصلحة ومتطلبات الوجود الإنساني على هذه الأرض.